تفسير إبن كثير

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

يقول تعالى مخاطبا لرسوله محمد صلى االله عليه وسلم : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق) أي : هو حق من االله ، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه .وقوله : (لتحكم بين الناس بما أراك االله) احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ، عليه السلام ، له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية ، وبما ثبت في الصحيحين من رواية هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن زينب بنت أم سلمة ، عن أم سلمة ; أن رسول االله صلى االله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : " ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها " .وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا أسامة بن زيد ، عن عبد االله بن رافع ، عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول االله صلى االله عليه وسلم في مواريث بينهما قد درست ، ليس

عندهما بينة ، فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلي ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتي بها إسطاما في عنقه يوم القيامة " . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقي لأخي فقال رسول االله صلى االله عليه وسلم : " أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ، ثم توخيا الحق ، ثم استهما ، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه " .وقد رواه أبو داود من حديث أسامة بن زيد ، به . وزاد : " إني إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل علي فيه " .وقد روى ابن مردويه ، من طريق العوفي ، عن ابن عباس قال : إن نفرا من الأنصار غزوا مع رسول االله صلى االله عليه وسلم في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فأظن بها رجل من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول االله صلى االله عليه وسلم فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي ، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده . فانطلقوا إلى نبي االله صلى االله عليه وسلم ليلا فقالوا : يا نبي االله ، إن صاحبنا بريء . وإن صاحب الدرع فلان ، وقد أحطنا

بذلك علما ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه . فإنه إلا يعصمه االله بك يهلك ، فقام رسول االله صلى االله عليه وسلم فبرأه وعذره على رؤوس الناس ، فأنزل االله : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك االله ولا تكن للخائنين خصيما) [يقول : احكم بما أنزل االله إليك في الكتاب] (واستغفر االله إن االله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم [إن االله لا يحب من كان خوانا أثيما]) ثم قال للذين أتوا رسول االله صلى االله عليه وسلم مستخفين بالكذب : (يستخفون من الناس ولا يستخفون من االله [وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان االله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل االله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا]) يعني : الذين أتوا رسول االله صلى االله عليه وسلم مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه [ثم يستغفر االله يجد االله غفورا رحيما]) يعني : الذين أتوا رسول االله صلى االله عليه وسلم مستخفين بالكذب ، ثم قال : (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) يعني : السارق والذين جادلوا عن السارق . وهذا سياق غريب وكذا ذكر مجاهد ، وعكرمة ،

وقتادة ، والسدي ، وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها أنزلت في سارق بني أبيرق على اختلاف سياقاتهم ، وهي متقاربة .وقد روى هذه القصة محمد بن إسحاق مطولة ، فقال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية من جامعه ، وابن جرير في تفسيره :حدثنا الحسن بن أحمد بن أبي شعيب أبو مسلم الحراني ، حدثنا محمد بن سلمة الحراني ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن أبيه ، عن جده قتادة بن النعمان ، رضي االله عنه ، قال : كان أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق : بشر وبشير ومبشر ، وكان بشير رجلا منافقا ، يقول الشعر يهجو به أصحاب النبي صلى االله عليه وسلم ، ثم ينحله بعض العرب ، ثم يقول : قال فلان كذا وكذا ، وقال فلان كذا وكذا ، فإذا سمع أصحاب رسول االله صلى االله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا : واالله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث ؟ - أو كما قال الرجل - وقالوا ابن الأبيرق قالها . قالوا : وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام ، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير ، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير ، فقدمت ضافطة من الشام ، فابتاع عمي رفاعة

بن زيد حملا من الدرمك فحطه في مشربة له ، وفي المشربة سلاح : درع وسيف ، فعدي عليه من تحت البيت ، فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح . فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه . فنقبت مشربتنا وذهب بطعامنا وسلاحنا . قال : فتجسسنا في الدار وسألنا ، فقيل لنا : قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم .قال : وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - : واالله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل رجلا منا له صلاح وإسلام . فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال : أنا أسرق ؟ واالله ليخالطنكم هذا السيف ، أو لتبينن هذه السرقة . قالوا : إليك عنا أيها الرجل ، فما أنت بصاحبها . فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها .فقال لي عمي : يا ابن أخي ، لو أتيت رسول االله صلى االله عليه وسلم فذكرت ذلك له . قال قتادة : فأتيت رسول االله صلى االله عليه وسلم فقلت : إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد ، فنقبوا مشربة له ، وأخذوا سلاحه وطعامه . فليردوا علينا سلاحنا ، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه . فقال النبي صلى االله عليه وسلم " سآمر في ذلك " .فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له : أسير بن عمرو

فكلموه في ذلك ، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا : يا رسول االله ، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح ، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت . قال قتادة : فأتيت النبي صلى االله عليه وسلم فكلمته ، فقال : " عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ، ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة ؟ ؟قال : فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ، ولم أكلم رسول االله صلى االله عليه وسلم في ذلك ، فأتاني عمي رفاعة فقال : يا ابن أخي ، ما صنعت ؟ فأخبرته بما قال لي رسول االله صلى االله عليه وسلم ، فقال : االله المستعان . فلم نلبث أن نزل القرآن : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك االله ولا تكن للخائنين خصيما) بني أبيرق